

## الصحيح من الفراسة

### امارات السرور

لا نجد انساناً ولا حيواناً الا وفيه عاطفة السرور يعرب عنها على اساليب شتى ظاهرة  
الدلالة لا تخفى على احد اظهرها الضحك وهو الاسلوب الوحيد الذي افاض في وصفه القدماء  
من اصحاب الفراسة كان ليس للسرور علامة سواه . ذكر بعضهم ان ديموقريطوس كان  
يقرب في الضحك حتى اتسع شدقه وبلغ اذنيه وبقيت آثار الضحك في وجهه . وقالوا ان زدشت  
صاحب ديانة الفرس ولد ضاحكاً وان من يقرب في الضحك حتى يتملكه السعال فهو ظالم  
عشوم ومن كانت له شفتان دقيقتان ووجه يشوش بضحك ابتساماً فهو محب للملذات . ومن  
كثر ضحكه قلت الثقة به ومن كان ضحكه قليلاً فهو كريم الطباع وافر الحكمة . الى غير  
ذلك من الاقوال السخيفة التي ان اصاب مرة اخطأت مئة مرة

واول من بحث عن الضحك بحثاً علمياً نسيولوجياً هو الشهير هربرت سبنر وقد خلاصنا الكلام  
التالي عما كتبه في هذا الموضوع قال :

اذا سألت الناس لماذا يضحكون حينما يرون ولداً يمشي لابساً ثياب ابيه اجابوك لاننا  
نرى تضاداً بين الولد الصغير واللباس الكبير . وهذا الجواب لا يبين سبب الضحك لان  
الانسان يضحك ايضاً اذا فرح وسر من غير ان يرى شيئاً من التضاد ولا يبين ايضاً سبب  
ما يحدث من الحركات في وجه الانسان حينما يضحك . وقس على ذلك سائر الامور التي يظنها  
الناس سبباً للضحك فانها ليست السبب النسيولوجي . والسبب النسيولوجي هو ما اريد بيانه  
من الافعال ما ليس خاضعاً للارادة كالسعال والعطاس لكنه يحدث من سبب مهيج كما  
اذا علق شيء في بالخلق او دخل السعوط الانف . ومنها ما هو خاضع للارادة لكن السبب المهيج  
يقويه كرجفان اليد فانه يشند بالبرد حتى يخرج عن فعل الارادة . ومعلوم ان المؤثر يؤثر في  
طرف عصب من اعصاب الحس فينقل العصب التأثير الى مركز الجهاز العصبي ثم يرد على عصب  
من اعصاب الحركة ويحرك العضو الذي اتصل به المؤثر اي ينتقل التأثير من الاعصاب الى  
العضلات . ثم ان الفعل العصبي يؤثر في الاوعية الدموية فاذا سمع انسان خبراً مفرحاً او محزوناً  
زادت ضربات قلبه . واذا سمع المريض حديثاً ساراً فقد يحسن هضمه للطعام . واذا لم يكن التهييج  
العصبي شديداً انتقل من عصب الى آخر بسهولة كما يحدث في انتقال الافكار من موضوع  
الى موضوع آخر

ويرى مما تقدم ان التهيج العصبي يسير في ثلاث مسالك اما من عصب الى آخر او من الاعصاب الى العضلات او من الاعصاب الى الاوعية الدموية والغالب انه يسير في اثنتين منها معا وقد يسير في واحد او في الثلاثة في وقت واحد ولكن ليس على السواء . فاذا اشتد الخوف على انسان حتى حمله على الركض بقي شيء من التهيج العصبي في اعصابه وتولدت منه الهواجس . واذا مدحت انسانا مدحا ترتاح اليه تنفسه صرف بعض التهيج العصبي في توليد المصرة فيه والبعض الآخر في توارد الدم الى معدته فتقوى على هضم الطعام يظهر من ذلك ان التهيج العصبي لا بد وان يسير في طريق ما فاذا كان بعض المسالك مغللا في وجوه سار في البعض الآخر واذا كثر ما سار منه في احد المسالك قل ما سار في غيره . وهذا مما نشاهده كل يوم فاشد الحزن ما لا يصحبه شيء من الحركات لان التهيج العصبي يقتصر في الاعصاب فيزيد شعورها واما اذا وجد له منفرجا بالعلم والبكاء قل تأثيره الداخلي . والرجل الذي يخفي غيظه يكون محبا للانتقام واما الذي يظهره بالخصام فلا يكظم الغيظ انتقاما

ولهذا فالحركات العضلية تخفف فعل التأثيرات العصبية . فالغضب يخف كثيرا اذا مشى الانسان مسرعا . ومن بلي يجسارة فادحة هانت عليه اذا عاد الى العمل بنشاط . والشد بالشد اي ان التأثيرات العصبية ثقل الحركات العضلية فاذا كان الانسان يمشي وخطر له خاطر شغل باله وقف بفتنة يفكر فيه واذا كان جالسا يحرك رجله ثم خطر له خاطر مؤثر او قهقها عن الحركة . والافكار تؤثر في الاوعية الدموية وتضعف حركة الدم فيها فاذا اشتد الفرح او الهم على انسان اقتداء شبيه الطعام واذا كان قد اكل اوقفا فعل الهضم . ومثل ذلك الاشغال العقلية وخلاصة ما تقدم ان التهيج العصبي الذي نشعر به بشاعرنا الباطنة لا بد وان يتخذ احدى الطرق الثلاث التي ذكرناها قبلا او اثنتين منها او كلها معا في وقت واحد وانه اذا شد احداها زاد ما يجري في الاثنتين الاخرين واذا زادت النكية الواردة منه الى احدى هذه الطرق قل ورودها الى غيرها . فانظر كيف يمكن تليل الضحك على هذا الاسلوب من البديهي ان الضحك حركة عضلية تنتج عن زيادة الشعور حتى يضطر الى تبديد ما يزيد بحركة عضلية . ومن المؤكد ايضا ان الضحك ليس دائما دليل الفرح بل قد يعجز عن التعب العقلي والشدقة وبعض انواع الالم . واذا ثبت ذلك نرى امامنا حقيقة اخرى وهي انه ليس للضحك غرض او غاية فني اغلب الاحيان تكون الحركات موافقة للتأثيرات التي ولدتها مثال ذلك ان الخوف يولد فينا قوة الركض للنجاة اما الضحك فلا تقع منه على الاطلاق والغالب

ان ما تشعر به النفس ينتقل من الفكر الى الحركة بواسطة اعضاء النطق كما يظهر الغضب او الرضى بحركات التكبير واللسان والشفتين ولذلك كانت بعض العضلات المحيطة بالثم اول ما يتأثر بالاحاسامات المطربة وتبليها الجهاز التنفسي . وكنا يعرف كيف يزيد التنفس وخفقان القلب بسبب الاخبار المؤثرة مفرحة كانت او محزنة . ثم اذا زاد التحج العصبي عما نتجمله اعضاء الكلام والجهاز التنفسي سار الى الاطراف العليا فيصق الاولاد بايديهم ويفرك الرجل يديه وقد يهز جسمه من الامام الى الورا . واذا زاد التحج العصبي بعد هذا استلقى على ظهره وغص برجليه . نعم ان ما تقدم قد لا يكفي لتعليل جميع حركات الضحك لكنه كاف لتعليلها اجمالاً وهو يملل الضحك الناتج عن السرور او الالم ولكنه لا ينطبق على ضحك المرء عند مشاهدته التضاد بين الاشياء . وقد قالوا في هذا ان الانسان يضحك لانفراج تفسد بقتة من الهم العقلي ولكن لماذا تضحك اذا سمعنا انساناً يعطس بين قترات الموسيقى المطربة حيث لاهم يتعب العقل . وللوصول الى التعليل الحقيقي لهذا الحادث علينا ان نحسب اولاً كمية الشعور في احول كده ثم نرى وجهة انصرافها . مثال ذلك لو فرضنا اننا نشاهد تمثيل رواية في مشهد وقد نبتناها باهتمام حتى وصلنا الى ما لتوق النفوس اليه كاجتماع العاشق ومثوقه بعد طول الفراق وزوال اسباب الجفاء فاللذة التي تشعر بها النفس حينئذ لا تريد تركها لانها نتيجة الفرج بعد مشاهدة عذاب الحبيبين . ثم لو فرضنا اننا ونحن ننظر اليهما وقلوبنا تطفح سروراً دخل المشهد جدي اليف وفتح في وجهيهما فان الحضور يضحون بالضحك وهذا الضحك لا يفسره قولنا انه نتج عن انفراج هموم النفس لان النفس تكون مسرورة بما تشاهده . والواقع هو ان قسماً كبيراً من الجهاز العصبي كان تحت تأثير شديد وكانت نفوس الحاضرين تنتظر ما سيكون من نهاية الرواية فلم يعترضها شيء يسار التأثير العصبي سيره في توليد افكار جديدة لكن دخول الجدي اوقفه بقتة قد يجراه ولم يفتح له مجرى كافياً لسيره كله لانه امر لطيف فسارت تلك الزيادة الى العضلات التي حول الثم ونتج منها ما ندعوه ضحكاً ويؤيد هذا التعليل ما نراه احياناً من ان بعض الذين يشاهدون الحوادث المضحكة لا يضحكون لما بل يستاؤون منها كما لو وقع رجل نحيم وهو ماشٍ لثقل جسمه فان كثيرين من الذين يرونه يهزؤون به ويضحكون ولكن بعضهم لا يضحك لشعوره بمصاب الرجل وهذا الشعور استغرق كل ما فيه من التأثير العصبي فلم يبق منه شيء يسر الى عضلات الثم التي تضحك قال واحد انه ذهب ليلة الى مشهد الخليل فكان اللاعبون يقنزون من فوقها ثم اتى المهرج ليقنز مثلهم فجمع قوته وركض مسرعاً حتى وصل الى محل القنز ثم وقف وجعل يمسح

الغبار عن جسم الفرس زاعماً انه بذلك يجعله اوطأ مما هو . فأغرب الحاضرون في الضحك كلهم الا الرجل المشار اليه فان التهييج العصبي لم يسرفه الى عضلات الضحك بل ولد فيه شعوراً جديداً وهو الغضب لاسمهزاه اللاعب بالحضور

ومن قابل بين الاسباب التي تولد الضحك والتي لا تولده يجد ان الشعور الذي ينتج عن الثانية يختلف بنوعه عن الشعور الذي ينتج عن الاولى ولكن كيته وقوته واحدة . ومن الاسباب التي لا تولد الضحك رؤية شخص مفلوج ينوء تحت حمل ثقيل وقساوة الوالدين على اولادهم وعقوق البنين لآبائهم وما اشبه . فكل هذه تجعل فينا الغضب والامل لا السرور والانشراح لان الشعور الاول ليس باقل تأثيراً من الثاني

ومن اسباب الضحك ايضاً ان يشغل الوجدان بدون انتباه من الامور الكبيرة الى الامور الصغيرة اي ان يكون التضاد على سلم نازل فاذا كان على سلم صاعد كان تأثيره ضد ذلك ونتج عنه العجب والانهال كما لو حدث حادث كبير عقب حادث صغير فعوضاً عن ناقص العضلات تراها تتعدد فيترك الانسان ما يكون بيده وفتح فاه

وما تقدم يساعد على تفسير كثير من الحركات غير الضحك . فكنا يعلم ان التأثيرات اذا اشددت تبطل عمل الذاكرة وتعرق قوة النطق مثال ذلك ما يعانوه بعض الناس من الاضطراب عند التكلم امام الجمهور وما يبدو على التلامذة من الوجع وقت الامتحان مع انهم يكونون قد استظهروا دروسهم جيداً . فان الخطيب اذا التي خطبته منفرداً سار التهييج العصبي الخفيف في مجرى ضيق لكنه كافٍ ولم يكن عليه سوى تذكار ما يكون قد اعدّه من الافكار وذلك لا يستلزم قوة عقلية زائدة . ثم اذا داخله الاضطراب امام الجمهور اقتضى هذا الشعور الجديد منفذاً ولما كانت الاعمال العقلية التي يعملها في ذلك الوقت معدودة لا تستغرق كل هذا الشعور سار في مجاري اخرى وولد افكاراً تختلف عما يكون الخطيب في صدره فينسى ما يكون قد اعدّه للخطابة

ومن هذا القبيل ما يمتاده بعض الخطباء من الايمان ببعض الحركات فمن اعضاء البارانت من ينزع نظارته ويلبسها مراراً وهو يتكلم وكثير من التلامذة لا يستطيعون الكلام امام الاساتذة ما لم يمسكوا قلماً او ورقة وبعضهم يلعب بزر ثوبه فاذا قطعت الزر او نزع القلم من يده وقتت سلسلة افكاره لان التهييج العصبي يعود فيزيد عما يلزم للافكار . ولا سبيل لاعادة الافكار كما كانت الا بصرف التهييج العصبي الى العضلات فيخف الضغط على الافكار . انتهى

والضحك غير خاص بالانسان فقد ابان دارون ان الثيباتزي يضحك اذا دُغغ فترق  
 عيناه وبسم فده وبجمد جفناه قليلاً ويموت صوتاً يشبه صوت الانسان اذا ضحك . وتغل  
 الدغدغة مثل ذلك بالارتع ارتاع وغيره من انواع القروود العليا والسفلى . والظاهر ان العرب  
 اتبها الضحك القروود كما ترى في قول بعضهم  
 واذا اشار محدثاً فكانه قرد يقهه او عجوز تلطم

وامارات الضحك ظاهرة في الوجه لا تخفى على احد حتى الطفل الصغير يراها ويميزها ويقلدها  
 ويبتدىء في التسم وينتهي في الاغراب اي المبالغة في الضحك وحينئذ تفيض الدموع فترق  
 بها العيون او تزيد فتتطل كما تتطل وقت البكاء وفي ذلك يقول الصني الحلي  
 ظفح السرور علي حتى انه من فرط ما قد نمر في ابكالي

وتشترك اعضاء النم والوجه كلها في اظهار السرور يقهه الضاحك تقهه يرددها كثيراً  
 وحينما تعجز هذه الاعضاء عن اظهار القوة العصبية كلها تساعدها عضلات التنفس والحجاب  
 الحاجز وقد تعجز هذه عن ابداء كل القوة العصبية التي تبيح حينئذ فتدعو الى حركة اليدين  
 والرجلين فيصق الضاحك يديه ويفحص برجليه ويشعر كأن خاستريه تكاد ان تبثقان  
 فيسكما يديه ويحمر وجهه وعتقه وينفخ وداجاه ويستند الى شيء خوفاً الوقوع  
 وقد تشد هذه الحركات حتى تتغلب على الارادة ويصير الضحك نوباً مزعجة جداً ولاسبها  
 في النساء والاولاد . والنساء اكثر ضحكاً من الرجال والصغار اكثر ضحكاً من البالغين لان  
 النساء والصغار اكثر انفعالاً من الرجال والبالغين واقل ضبطاً لحاساتهم . ويضحك الانسان في  
 الصحة والقوة اكثر مما يضحك في المرض والضعف . ويكثر الضحك ايضاً في حالة البله وفي  
 بعض الامراض العصبية

وعلاقة الضحك بجالة الانسان الادبية اشد من علاقته بجالته العقلية فالتكبر المحجب  
 بنفسه الذي لا يعرف كيف يتصرف يضحك قليلاً لكي لا يفرط في عزه نفسه . وكذلك الحسود  
 والشريير يضحكان نادراً لانهما لا يريان ما يسرها

والضحوك الذي يضحك لاقبل سبب ويضحك كثيراً كبريم الاخلاق خال من العجب  
 بنفسه . وقد يدرب الانسان نفسه تدريجاً على الامتناع عن الضحك اما لكي لا يقال انه خفيف  
 الروح او لكي لا يظهر تجمده وجهه وخلل اسنانه . وهذا في النساء اكثر منه في الرجال . وقد  
 يدرب نفسه على الضحك لنظير اسنانه اذا كانت جميلة

ويضحك الانسان احياناً ضحك التهك ويسمى الضحك الصفراوي لكن التمييز بين هذا

الضحك وضحك السرور واضح جداً لا يخفى على أحد

والفرح والحزن شعوران تبدو علامتهما على نسق واحد في كل شيء . الفرح يدعو الى البهجة والبسط والاعظام . والحزن يدعو الى الكدر والضيقة والاختفاء . افرح فتفتح كوى يتك وتطلب النور والهواء والحركة . احزن فتقف كوى يتك وتطلب الظلمة والسكون والانسواء . انظر الى جماعة اجتمعت في السوق ووقفت ساكنة ساكنة كأن على رؤوسها الطير لا حركة لها ولا اشارة فتعلم حالاً انها رأت شيئاً محزنًا ولذا دامت الترامواي او رجلاً وقع ميتاً . وانظر الى جماعة اخرى وقفت ترقص وتطرب وتزعق فتعلم انها في نوح في عرس او عيد او ما اشبه

ويظهر الابتسام في الطفل اولاً وعمره اربعون يوماً او خمسون ثم يضحك وعمره ثلاثة اشهر ثم تزيد علامات الفرح فيه ظهوراً بين الخامسة والعاشره فيصير يبت على قدميه ويصنع يديه كأنه يكاد يطير فرحاً . وهذا الرقص وهذا التصفيق اول مبادئ الموسيقى فهي بنت السرور وهو ابتهاج والتدرج بسيط من التصفيق باليدين الى النقر على الدف والطبل والصنوج الى سائر آلات الطرب . وقد يظهر السرور الحيواني على اساليب اخرى يشترك فيها الانسان والحيوان الاعمى مما لا يحل لبسطه

وجملة القول ان السرور الدائم الناتج عن جودة الصحة وراحة البال وقلة الهموم يظهر في بشاشة الوجه وطلاقة وبريق العينين فيقال ان وجه فلان يضحك وان النظر فيه يشرح الصدر والسرور الذي يأتي بمنة والنفس غير مستعدة له لا تكفي البشاشة العادية لاظهاره

فيظهر بالتبسم والضحك والمهجة والتصفيق والرقص والغناء والطرب

والسرور الناتج عن النجاح وشبع المطامع يظهر بالعجب والخيلاء فينبغ الانسان صدره كما ينفش القط شعرة ليظهر أكبر مما هو ويخاف الكلب منه . ويرفع رأسه ويتكلم كلاماً غنياً مقعراً لكي يراه ويسمعه كل احد

والسرور الناتج عن اللذة وخفة الروح كثير في محبي بطونهم قارى افواههم مفتوحة غالباً كأنهم ينتظرون لقمة طيبة او قلة سارة

وبعض هذه الامارات يدور وينزل حالاً وبعضها يبقى اثره في الرجد . فالبشاشة والعجب آثارها ثابتة في الوجه والسرور البغي والسرور الناتج عن اللذة تبدو اماراتهما وتزول بزوالهما . وقد يبقى بعضها اذا تكرّر مراراً كثيرة قارى محبي الملاذ جاحظي العينين مفتوح الفم او منكسري الطرف كمن يشم زهرة طيبة ويسر برائحتهما